سلسلة الفتوحات الإسلامية

موقعة أجنادين
وفتح بيت المقدس

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان
موقعة أجنادين.ـ الرياض.
٤١ ص ؛ ١٧ x ٢٢سم (سلسلة الفتوحات الإسلامية ؛ ٧)
ردمك: ٤-٩٣٣-٢٠-٩٩٦٠
١ ـ حروب أجنادين أ ـ العنوان ب ـ السلسلة
ديوي ٩٥٣,٠٢٣ ٢٢/١١١٧

ردمك: ٤-٩٣٣-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١١١٧

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الناشـــــر
مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

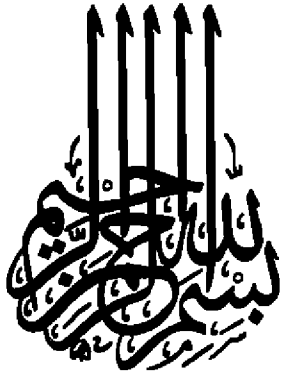
بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أربطبون الروم

استمرار فتوحات المسلمين في أرض الروم

منذ أن نصر الله جنده المسلمين على الرومان بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح في موقعة اليرموك، المعركة العظيمة التي أظهر المسلمون فيها من المواقف ما أذهل أعداءهم، وأذهب عقولهم، فلم يستطع الروم الثبات في ميدان المعركة لوقت طويل، وهربوا من أمام جند الله الذين يسعون لنشر دينه، وفرض قيم الحق، والعدل إلى الأرض التي استولى عليها الروم بالقوة، فظلموا أهلها، ومنعوهم حقوقهم.

وهرب هرقل حاكمهم، واستمر الجيش الإسلامي مواصلاً فتوحاته، لا يلقى جيشاً من جيوش الروم إلا هزمه. ودب الرعب فيهم، فهم يعلمون أن خيل المسلمين التي وجهها إليهم أبو بكر الصديق ليست بعيدة عنهم، سوف تفاجئهم بين لحظة وأخرى.

واستمرت فتوحات المسلمين، وهزائم الروم في موقعة مرج الروم، ثم فتح حمص، وبعدها فتحوا بلدة اسمها «قنسرين»، وفيها رجع أمير المؤمنين عمر عن رأيه، وكلف خالد بن الوليد بفتحها، ومن طريف ما حدث فيها

أن أهل قنسرين دخلوا حصونهم، فاحتموا بداخلها من المسلمين، فقال لهم خالد:

- «إنّكم لو كُنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا»[1].

فلم ينتظر أهل قنسرين كثيراً حتى استسلموا وطلبوا الصلح مثل أهل حمص، وكعادة حكام الفرس والروم الظالمين، فإن هِرَقْل كبير الروم القيصر لم يتحمل كل هذه الهزائم، فلم يعلن ثباته ودفاعه عن أراضي مملكته بما يستطيع من عزم وقوة، بل هرب بنفسه بعيداً عن جنده وبلاده!.

واستمرت خيول المسلمين تسابق الرياح، عليها فرسان أشداء حتى استسلم أهل الأردن، وطلبوا الصلح من المسلمين، ومضى المسلمون حتى وصلوا بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط اسمها «قيسارية» وقد كانت من أكبر المدن أثناء حكم الروم، فأمر أمير المؤمنين عمر أن يكون قائد المسلمين في فتح هذه البلدة هو معاوية بن أبي سفيان، ورفض أهل هذه البلدة الصلح، ولم يتعظوا، ولم يأخذوا درساً مما لاقاه الذين هم أشد منهم قوة.

لكن معاوية كعادة القواد المسلمين صمم على أن يهزمهم، فاجتهد في القتال حتى فتح الله عليه، وانتصر على الروم، فقتل منهم عدداً كبيراً يقدر

(١) تاريخ الطبري - جـ٣ - ص ٦٠١.

بمئة ألف جندي، كان عنادهم هو الطريق الذي أوصلهم إلى هذه النهاية السيئة.

تجمع الروم:

لقد تغلب المسلمون على الروم في جميع المدن، ولم يبق على دخولهم القدس – وكانت تُسمى في ذلك الوقت «إيليا» – سوى مسافة قصيرة.

عندما سار عمرو بن العاص إلى القدس – بناء على أمر عمر – لقي مفاجأة في طريقه؛ إذ وجد أن الروم قد تجمعوا قبل مدينة القدس، قرب مدينة اسمها الرملة، هذا غير الجيش العظيم الذي أعدوه في القدس نفسها[1].

تنظيم جيوش المسلمين:

كان المسلمون كعادتهم شديدي النظام، وجيوشهم على أتم الاستعداد لمقابلة عدوهم ، ففي الأردن تركوا أبا الأعور السلمي، كي لا ينتهز أهلها فرصة خروج المسلمين منها، فيهجموا عليهم من الخلف، ولما علم عمر بتجمع الروم لقتال جيش عمرو أراد أن يشغلهم عنه حتى لا يتجمعوا عليه، فيستطيعوا هزيمته فبعث أبا أيوب المالكي إلى مدينة الرملة نفسها،

(١) البداية والنهاية – ابن كثير – جـ ٤ – ص ٧٣.

وكذلك كان عمرو قد عين علقمة بن حكيم؛ ومسروق بن فلان لقتال أهل إيليا.

وأخذت الجيوش المساعدة تأتي إلى عمرو، فيرسل بها إلى كل قائد من هؤلاء القواد.

الأرطبون:

قائد الروم في هذه المعركة يُسمى بـ «الأرطبون»، وكان من أشد قواد الروم، إن لم يكن أشدهم، فقد كان يتمتع بشدة ذكاء، وكذلك ببعد نظر، والقدرة الكبيرة على التخلص من الشدائد والمواقف الصعبة، وهو يستخدم جميع هذه القدرات في معاركه، وهو زيادة على هذا شجاع في ميدان المعركة.

تصرف حكيم:

تجمعت كل هذه المعلومات أمام عمرو، فقرر ألاّ يدخل في معركة لم يُحسن الإعداد لها، وهو أحد قواد المسلمين المهرة لا يريد أن يدخل في المعركة حتى يتمكن من الإمساك بخطأ يستطيع به خداع أرطبون الروم، وبناء خطة واضحة يستطيع بناء عليها إلحاق هزيمة مبكرة بجيش الروم الضخم، وبالتالي قهره وكسر شوكته.

وانتظر عمرو وأخذ يكثر من الاستماع إلى ما تخبره به الرسل الذين يتسللون إلى جيش الروم، راجيًا أن يخبره واحد منهم بما يريده، وبما يستطيع أن يبني عليه خطته، فما إن يأتي رسول حتى يستمع إليه جيداً، فيتدبر كلامه جيداً، ويقلبه على كُلِّ وجه، عسى أن يصل عن طريقه إلى خطة واضحة، وفي كل مرة لا يصل إلى ما يريده.

ولما كان الله – عز وجل – قد وهب عمراً من حضور الذهن وحدَّة الذكاء الكثير، فإنه لم يستسلم للأمر الواقع وقرر في نفسه أن يتصرف، ولما فكر جيداً وجد أنه ليس لديه إلا تصرف واحد، وهو شديد الخطورة، ولكن متى كانت خطورة المواقف تمنعه من تنفيذ ما يريده وهو[1].

(١) انظر عمرو بن العاص – محمد علي قطب – ص ٣٥.

الفصل الثاني
أرطبون العرب

أمير المؤمنين يصف عمرًا:

ووصلت الأخبار إلى أمير المؤمنين عمر، وعلم أن عمراً يستعد لقتال قائد داهية – شديد الذكاء – من قادة الروم، وعلم أيضاً الكثير عن شجاعته، وقدرته على التصرف، فكان جوابه:

– «لقد رَمَيْنا أَرْطَبُون الروم، بأرْطبون العرب، فلننظر عَمَّ تَنفَرج الأمور»[1].

فعمر واثق من شدة ذكاء عمرو، وشجاعته وقدرته على التصرف، وهو متأكد من أن أرطبون الروم هذا مهما بلغ من حدة ذكائه، أو بُعْد نظره، فلن يستطيع أبداً أن يساوي حدة ذكاء وبعد نظر القائد الذي أرسله لقتاله؛ بل يصفه بأنه أرطبون العرب، وقد وجهه لقتاله، وما على المسلمين إلا انتظار نتيجة المعركة.

قوة عمرو:

إنَّ عمراً يتميز بقوة ذكائه، زيادة على قوته الجسدية، حتى إنه يروى[1]

(١) رجال حول الرسول – خالد محمد خالد – ص ٦٤٩.

أن أمير المؤمنين عمر كلما رأى إنساناً عاجز الحيلة، غير قادر على التفكير أو الخروج من ورطة أو مأزق تعجب قائلاً:

– «سبحان الله ! إنَّ هذا وخالق عمرو بن العاص إله واحد»!.

الحيلة:

وحينما لم تبق أمام عمرو إلا الحيلة لمعرفة أسرار الروم العسكرية قبل أن تبدأ المعركة، وحينما لم تنقل إليه الرسل ما يريده، قرر الذهاب إلى قائد الروم، إلى الأرطبون بنفسه!.

نعم إنها الشجاعة حينما تجتمع مع قوة العقل، والقدرة على التغلب على الصعاب، حينما تجتمع كل هذه الصفات لإنسان واحد، ويرزقه الله مع ذلك كله الإيمان، إذن فقد وُهِبَ هذا الانسان من الخير الكثير.

لم يتردد عمرو حينما استقر رأيه على الذهاب بنفسه إلى قائد الروم، لم يتردد حينما علم أنه لا حل إلا هذا، فتنكر بعدما غيّر ملابسه، وارتدى ملابس أخرى كتلك التي ترتديها الرسل، وخرج حتى دخل على الأرطبون كأنه أحد رسل المسلمين.

الأرطبون يعرف عمرًا:

الأرطبون وعمرو يجتمعان في مكان واحد، وكلٌّ منهما قد عُرِفَ عنه حسن التفكير، وحسن الإدراك، لقد صدق عمر بن الخطاب حينما قال بأنه أرسل أذكى العرب إلى أذكى الروم، ونصح أصحابه أن ينتظروا معه النتيجة.

ودخل عمرو متنكراً على قائد الروم، فحياه كما يحيي الرسل، وأخذ يتكلم كما يتكلمون، فالذي يراه وهو يتحدث لا يشك في أنه رسول، ولكن عمراً أخذ يقول كلاماً محدداً يريد منه توصيل معلومات معينة إلى قائد الروم.

وحرص عمرو أثناء حديثه على أن يرى بنفسه ما لم يستطع الرسل أن ينقلوه إليه، فكان يتأمل المكان جيداً، ويستدل على مدى قوة الروم من أشياء يعرفها.

ولكن الأرطبون بعدما تأمل عمراً جيداً، دهش من حدة ذكائه، ولباقته في الحديث، فجعل ينظر إليه أكثر، ويطابق بينه ، وبين الصفات التي يعرفها عن عمرو نفسه حتى وصل بذكائه الشديد إلى أن هذا الذي يقف أمامه إذا لم يكن عمراً نفسه، إذن فهو أحد أبطاله المعدودين الذي لا ينبغي أن يفلت من يده، أو أن يتركه دون أن يقتله، وقال في نفسه: إنه إن قتله فَقَدَ المسلمون بطلاً من أبطالهم.

الأرطبون يخطط لقتل عمرو:

وبينما عمرو يستعد للخروج من عنده، بعدما حقق ما يريده، وعرف المدخل الذي يمكنه هزيمة الروم من خلاله، كان ذهن قائد الروم منشغلاً بأمر آخر تماماً، إذ إنه أمر أحد حراسه أن يقف في مكان سَيَمرُّ منه عمرو وهو خارج، فيقتله.

ورغم أن الرسل لا يُقَتلون؛ لأنهم يكلفون بنقل الأخبار، وقد دخل عمرو عليه كرسول إلا أن قائد الروم لم يكن يحترم القيم والمبادئ المتفق عليها، وكان شديد الحقد والغيظ من المسلمين وانتصاراتهم.

عمرو يكتشف خديعة قائد الروم.

ولكن هل تدخل هذه الحيلة التي يدبرها أذكى الروم وقائدهم على أذكى العرب وقائدهم؟

لا، فقد أحس عمرو بذكائه الشديد، ومن قبل بحسه الإيماني المرهف بأن في الأمر شيء قد دبره الأرطبون لقتله، وكما حاول الأرطبون استخدام ذكائه في القضاء عليه، استخدم عمرو ذكاءه في النجاة مما خططه عدوه فقال له:

– «قد سمعت منيّ وسمعتُ منك، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً – أي: فهمتُه فهماً معيناً–، وأنا واحدٌ من عشرة، بعثنا عمر بن الخطاب مع

هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك».

فطمع الأرطبون في قتل العشرة جميعاً بعدما صدق كلمات عمرو ودخلت عليه الحيلة، واختتم عمرو كلماته بقولٍ يطمئن الأرطبون به، فهو يقول له بأن التسعة الباقين إن لم يقتنعوا بالعرض الذي عرضه عليه: فسوف يعودون في سلام، وللأرطبون أن يتصرف بعد ذلك كما يشاء.

الأرطبون يصدق حيلة عمرو:

وبدلاً من أن ينفذ الأرطبون حيلته ويقتل عمراً فقد صدق حيلته وأمر الحارس ألا يقتله، فمرَّ سالماً ثم لم يعد إليه ثانية، فعلم أرطبون الروم أن قائد المسلمين عمراً قد خدعه، فاعترف قائلاً:

«خدعني الرّجُل، هذا أدهى الخلق».

وعاد عمرو سالماً بعد ما علم من أسرار الروم الكثير، ولكن هذه الحكاية وصلتْ إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فقال:

«غلبه والله عمرو»(١).

(١) تاريخ الطبري - جـ٣ - ص ١٠٦.

الاستعداد للمعركة:

وعرف عمرو بنفسه ما لم تستطع الرسل أن تخبره به، واستطاع بذكائه أن يُقدِّر قوة الروم، وكيف يمكنهم أن يقاتلوا وإلى أي مكان سوف يتجهون في حربهم للمسلمين، وعليه فقد بدأ يستعد للمعركة، ومن ثَمَّ رتب خطته، وهجم بجنوده على جيش الروم وقائدهم الذي كان يظن بنفسه الذكاء الشديد.

الفصل الثالث

المعركة

قتال اليأس:

وبدأت المعركة شديدة قوية، أجمع الرواة أنها لم تكن أقل شدة من معركة اليرموك[1]، وتداخل الجيشان، وسيوف المسلمين ترفعها أيديهم القوية إلى أعلى، ثم تنزل بها في قوة على رؤوس أعدائهم من الروم، والروم ثابتون يقاتلون قتال اليائس الذي لا يعرف لنفسه مكانًا إن هُزِمَ في هذه المعركة، بينما المسلمون يقاتلون عدوهم في حدة، لا يخيفهم منه كثرة عدده، وقوة سلاحه، لأنهم يعلمون أنهم على الحق، وأن عدوهم على الباطل وإن كثُر عدده، وتضخم سلاحه.

واستمرت المعركة شديدة قوية، ذاق فيها جيش الروم حدة سيوف المسلمين مما جعلهم يهربون من ميدان المعركة، متوجهين إلى بيت المقدس ليحتموا به، وقيل إن عدد الذين هربوا في ذلك اليوم كان ثمانين ألف جندي[2].

---

(١) العبر و المبتدأ والخبر – ابن خلدون جـ١ – ص ١٠٤، وانظر البداية والنهاية جـ ٤ – ص ٧٤، وتاريخ الطبري جـ٤ – ص ٦٠٦.

(٢) عمرو بن العاص – عبد السلام العشري – ص ٥٦.

دخول المسلمين أجنادين:

ودخل المسلمون بقيادة عمرو بن العاص أجنادين منتصرين بعدما أعزهم الله، وكذلك نجحت جيوش المسلمين في شغل بقية جيوش الروم عن جيش عمرو في أجنادين، ولكن ظهرت مشكلة جديدة؛ وذلك أن هذه الجيوش لم تستطع دخول إيليا أو مدينة بيت المقدس، ثم إن الروم الذي هربوا من ميدان المعركة من أمام المسلمين في أجنادين قد انضموا إليهم. فهل يكتفي المسلمون بما حققوه من نصر في أجنادين؟

الجواب: لا؛ بل إنهم يتطلعون إلى نشر دين الله في جميع نواحي الأرض، وهم في هذه المرة لن يرضوا بأقل من فتح بلاد الروم، ونشر صوت الحق – صوت الإسلام – فيها.

واجتمعت جيوش المسلمين إلى جيش عمرو في أجنادين ، الجيش الذي كان قد سار إلى الرملة بقيادة أبي أيوب المالكي، والجيش الذي كان قد سار إلى مدينة بيت المقدس بقيادة علقمة بن حكيم، ومسروق بن فلان وغيرهم من قادة المسلمين الأبطال، فأخذوا يخططون لفتح إيليا «القدس».

رسالة من الأرطبون:

وبينما هم على هذه الحالة وصلتهم رسالة من حاكم فلسطين الأرطبون،

يخاطب فيها قائد جيوش المسلمين عمراً فيقول له:

«إنّك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع ولا تغتر».

أرطبون المهزوم يوجه هذه الكلمات إلى جيش عمرو المنتصر، وهو يقسم على ذلك، فما من فرصة أمام عمرو إلا أن يُبطل له قسمه هذا، ويفتح القدس.

عمرو يرد على رسالة الأرطبون:

ووصل خطاب الأرطبون إلى القائد المنتصر عمرو بن العاص، فقرأ ما فيها من تهديد الأرطبون المهزوم، وتحذيره من التقدم بجيش المسلمين، ومن كلمات لا تدل إلا على أن الأرطبون المهزوم لا يجد ما يقوله فيلقي بالتهديدات التي لا معنى لها، فمهما كانت قوة الروم التي جهزوها في مدينة إيليا المقدسة، فإنها لن تكون بأشد من قوتهم في معركة اليرموك، وفي معركة أجنادين، وقد كان جيش عمرو يحارب بعيداً عن جيوش المسلمين، أما وقد اجتمعت لديه كل الجيوش فماذا ستستطيع الروم أن تفعل، ولذلك أسرع عمرو بالرد على رسالة قائد الروم، وقال في جوابه:

«جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، لولا خَصْلة وهي أنك

تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحبُ فتح هذه البلاد؛ لذا فإني استعدي عليك فلاناً وفلاناً وفلاناً – وأطلب رأي أناس حددهم عمرو من وزراء الأرطبون فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك».

وزراء الأرطبون يتعجبون من كلام عمرو:

وسار الرسول بالرسالة إلى الأرطبون، وكان عمرو قد تعمد أن يكون الرسول عالماً باللغة الرومية التي يتحدث بها الأرطبون وأصحابه، وكذلك فقد أمره بأن لا يظهر هذا، فيقف أمامهم وكأنه لا يعرف اللغة التي يتحدثون بها، ذلك حتى يستمع جيداً إلى ما يقولون، ثم يرجع فيخبر عمراً بما سمع، فيتخذ قراراته بعد ذلك بناء على ما أعلمه الرسول.

ووصل الرسول إلى الأرطبون الذي قرأ خطاب عمرو فتعجب مما فيه، ولم يملك إلا أن يقرأه على وزرائه كما طلب منه عمرو كي يخبروه برأيهم.

وبعد قراءة الأرطبون للخطاب، أخذ وزراؤه يتعجبون، ويضحكون مما جاء فيه، كل هذا والرسول المسلم الذي أمره عمرو بأن يستمع جيداً لما يقولون واقف يستمع ويشاهد وإن كانت ملامحه لا تدل على ذلك، وحين فرغ قائد الروم من القراءة ضحك وزراؤه، وتعجبوا من كلام عمرو وسألوا قائدهم:

« من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ » .

يسألونه عن السبب الذي لأجله يتمسك بأن عمراً ليس بصاحب فتح هذه البلاد، فقال الأرطبون :

« صاحبها رجل اسمه عمر، ثلاثة أحرف » .(١)

إن المعلومات التي لديه، والتي أخذها عن الكتب التي يقدسها وقومه – بحكم أنهم نصارى – قد أخبرته بأن الذي سوف يقود فاتحي القدس اسمه عمر، يتكون من ثلاثة أحرف فقط، وعمرو اسمه يتكون من أربعة أحرف .

ورغم أن كتب النصارى من عهد قديم وعهد جديد؛ من توراة وإنجيل قد تعرضت للتزييف والتغيير حسب رغباتهم، إلا أن الله قدر أن هذه المعلومة لم تكن مما وصلت إليها أيديهم بالتزييف والتغيير.

حُسن تصرف عمرو:

والموقف السابق موقف من المواقف التي تشهد برجاحة عقل عمرو، وقدرته على خداع الأرطبون الذي لم يعلم أن رسول عمرو الواقف أمامه يعرف جميع ما يقوله لوزرائه، ويفهم لغتهم جيداً، وسوف ينقل هذه

(١) تاريخ الطبري – جـ ٣ – ص ٦٠٦.

الكلمات بدقة إلى عمرو، إنه موقف آخر من المواقف التي تغلب فيها ذكاء عمرو على ذكاء الأرطبون، وبذلك تجنب تجدد القتال بينهما، إذ إنه علم بالتحديد السبب الذي يحارب لأجله قائد الروم، ويدفع بجنوده من أجله إلى هلاكهم، لقد علم أن هناك حلاً آخر يتجنب فيه إراقة الدماء، وهو الإرسال إلى أمير المؤمنين فهو عمر الذي اسمه على ثلاثة أحرف، والذي حدده الأرطبون، دون أن يعلم أن الرسول الواقف أمامه سوف يخبر عمراً بكلماته.

رسالة من عمرو إلى عمر:

وأرسل عمرو رسالة إلى أمير المؤمنين يقول له فيها:

«إنّي أعالج حرباً صعبة مجهدة، وبلاداً ادُّخرت لك، فرأيك»[1].

إنها كلمات تصف الموقف بدقة، كلمات موجزة ولكن فيها حقيقة الموقف كله، إذ يصف عمرو الأمر ويواجه حرباً صعبة مجهدة، سوف يصطدم فيها المسلمون من جديد بأعدائهم، وسوف يُقتل من أعدائهم الكثيرون كما قُتِلَ في معركة أجنادين، وكذلك سوف يستشهد من المسلمين عدد غير قليل، ولكن هناك حلاً آخر استطاع عمرو أن يتوصل

(١) البداية والنهاية – ابن كثير – جـ ٤ – ص ٧٤.

إليه، وهو أن هذه البلاد أرض فلسطين لن يكتمل فتحها إلا على يد عمر نفسه، وهو بعد أن عرض ما لديه من الوقائع والرأي، يلتزم أدب الحديث مع قائده كما علمه الإسلام، إذ يختتم خطابه بكلمة:

« فرأيك ».

أي أن عمراً قد عرض ما لديه، وهو ينتظر القرار النهائي من أمير المؤمنين عمر، وسوف يتصرف بناء على ما سيرد إليه من كلماته بعد ذلك.

وهكذا سار المسلمون بعد أقل من عامين من بداية فتوحاتهم لبلاد الروم، على أبواب فتح المدينة المقدسة « القدس » واستخلاص فلسطين كاملة، وتحرير أهلها من ظلمهم، فقد بدأت اليرموك في العام الثالث عشر من هجرة الرسول، وكانت معركة أجنادين في العام الخامس عشر من الهجرة، وإن كان من المؤرخين مَنْ يرى أنها قبل ذلك، في عهد أبي بكر الصديق إلا أن أرجح الآراء أنها كانت في عهد عمر[1].

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر - ابن خلدون - جـ ١ - ص ١٠٦.

الفصل الرابع
رأي أمير المؤمنين

المسلمون ينتظرون:

لم يبق أمام عمرو والذين معه من الجنود سوى انتظار قرار أمير المؤمنين عمر، وبناء عليه سوف يتصرفون، وبينما هم في انتظارهم، كان عمر قد كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح قائد جيوش المسلمين في الشام يأمره بأن يتحرك ويسير إلى أهل بيت المقدس ومحاربتهم.

استجابه أبي عبيدة لأمر أمير المؤمنين:

وحينما وصلت رسالة عمر إلى أبي عبيدة أسرع بتعيين أحد كبار المسلمين مكانه وهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فجعله حاكمًا على دمشق مكانه، ثم خرج بالذين معه من المسلمين حتى الأردن، فاستقر فيها قليلاً، وكعادة المسلمين في تحذير عدوهم قبل قتاله، وإرسال رسالة يخيرونه فيها بين الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب فقد أرسل أبو عبيدة إلى أهل إيليا أو أهل بيت المقدس رسالة يقول فيها:

رسالة تحذير:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة بين الجراح إلى بطارقة – أي: أكابر – أهل إيليا وسكانها، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله العلي الأعلى؛ أما بعد فإني آمركم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأنّ مُحمداً عبده ورسوله عليه الصلاة والسلام، وأنّ ما جاء به من عند الله عزّ وجلّ حق، والجنَّة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور، فإذا شهدتم بذلك فقد حرمت علينا دماؤكم وأموالكم إلا بحقها، وأنتم إخواننا في ديننا، وشركاؤنا في نصيبنا من رضا الله في الدنيا والآخرة، وإن أبيتم ذلك سرتُ إليكم بقوم هم أحبّ للموت من شربكم الخمور وأكلكم لحم الخنزير، ثم لا أرجع عنكم أبداً إن شاء الله حتى أقتل مقاتلكم وأسبي ذريتكم وأقسم أموالكم، فاختاروا، اعلموا أني في إثرِ كتابي هذا إليكم إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[1].

رد أهل بيت المقدس:

ووصلت الرسالة إلى أهل إيليا، وقرؤوا ما فيها، ولكنهم لم يردوا عليها، مختارين الحل الصعب؛ ألا وهو محاربة المسلمين، وهكذا أسرع أبوعبيدة

(١) الفتوح – ابن أعثم – جـ ١ – ص ٢٨٩.

بالمسير إليهم، حتى وصل إلى مدينتهم حين علم أن ردهم كان رفض ما جاء برسالته، فلم يبق أمامه إلا تحقيق ما حذرهم منه.

الحـــرب:

وتجددت الحرب بين الروم والمسلمين من جديد، وتحقق ما حذرهم به أبوعبيدة، إذ إن جنود الروم قد رأوا من المسلمين ما لم يكن يخطر لهم على بال، ولم يكونوا راغبين في الموت مثلهم، فهم يحاربون وهم حريصون على الحياة، أما الجندي المسلم فهو يحارب وهو يتمنى الموت كي ينال منزلة الشهداء.

وهُزِمَ الروم من جديد، واضطروا من جديد إلى أن يدخلوا مدينتهم، فيحتموا فيها من سيوف المسلمين، بعدما رأوا قتلاهم يتزايدون[1].

واستمرت الحرب أياماً كثيرة، وحينما لم يجد الروم في أنفسهم قوة، فالمسلمون يحاصرون مدينتهم من كل اتجاه، ويقاتلونهم وعندما طالت عليهم الحرب، وأيقنوا أنهم مهزومون أرسلوا إلى أبي عبيدة قائد جند المسلمين يقولون له:

(١) الفتوح – ابن أعثم – جـ ١ – ص ٢٩٠.

أهل بيت المقدس يطلبون الصلح:

- «إنّا قد أحببنا مصالحتكم ولسنا نثق بكم، ولكن اكتبوا إلى صاحبكم عمر بن الخطاب حتى يقدم علينا فيكون هو الذي يعطينا الأمان، ويكتب لنا العهد فإنا به واثقون، وإليه نميل».

لقد استسلموا وهم يطلبون الصلح كما صالح المسلمون من قبل أهل مدن الشام[1]، ولكنهم خائفون، لا يأمنون على أنفسهم، وهم يثقون في عمر أمير المومنين، وإليه تميل أنفسهم، لذلك فإنهم لن يسلّموا المدينة المقدسة إلا له.

وكعادة قادة المسلمين فقد أخذ أبوعبيدة يستشير من حوله من الصحابة، فقال له معاذ بن جبل:

«أرى أن تكتب إلى أمير المؤمنين، وتسأله القدوم إليك، فلعله إذا قدم أن يصلح الله عز وجل به باقي بلاد الشام إن شاء الله».

أبو عبيدة يُعلم أمير المؤمنين:

ارتاح أبو عبيدة إلى رأي معاذ بن جبل، فأرسل بخطاب إلى أمير المؤمنين يخبره فيه بما حدث لهم مع أهل مدينة إيليا أو بيت المقدس،

(١) تاريخ الطبري - جـ ٣ - ص ٦٠٨.

ويخبرهم بأنهم طلبوا الصلح على أن:

« يقدم عليهم أمير المؤمنين فإنه هو الموثوق به عندهم، فيكتب لهم كتابًا بأمانهم، ثم إنا خشينا أن يقدم - يجيء - أمير المؤمنين فيغدروا بعد ذلك، ويرجعوا، فأخذنا عليهم العهود والمواثيق أنهم لا يغدرون، وأنهم يؤدون الجزية، ويدخلون فيما دخل فيه أهل الذمة، فأقروا لنا بذلك، فإن رأيت يا أمير المؤمنين، أن تَقْدُمَ علينا فافعل، فإن في قدومك من الأجر والثواب ما لا يخفى عليك ».

عمر يستشير أصحابه:

وإذا كان قائد الجيوش الإسلامية قد استشار أصحابه وهو على أبواب مدينة إيليا؛ فنصحوه أن يضع الأمر بين يدي عمر، فإن عمر وهو أمير المؤمنين قد استشار أصحابه في أمر ذهابه إلى أهل بيت المقدس، أو عدم الذهاب إذ إن الإسلام قد علم المسلمين قاعدة لم تعرفها أرقى الأمم من قبل، ولو أنها توافرت لدى الفرس، أو الروم لتغير من تاريخ حياتهما الكثير، وقد كان أحد أهم أسباب زوال ملكهما أن الحاكم وحده هو الذي يتخذ القرار المناسب لمصالحه وراحته هو، وسيطرته وغناه؛ دون مرعاة لحال الشعب، أو حتى الجنود.

أما عن عمر حاكم المسلمين فإنه لما قرأ خطاب أبي عبيدة، فأرسل إلى كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة، وحين حضروا عنده استشارهم في أمر خروجه إلى أرض فلسطين.

رأي عثمان بن عفان:

فكان رأي عثمان بن عفان ألاّ يخرج عمر إلى أهل مدينة إيليا، فإن الله قد أذلهم، بأن مكّن أبا عبيدة وجنود الإسلام من محاصرتهم والتضييق عليهم، وهم في كل يوم يزيدون ضَعْفاً، وينقصون عدداً، وهو حينما يتركهم فإنما يقلل من أمرهم، فلا يجدون حلاًّ أمامهم سوى مصالحة المسلمين ودفع الجزية[1].

رأي عليّ بن أبي طالب:

فلما انتهى عثمان من رأيه سأل أمير المؤمنين الصحابة:

«هل عند أحد منكم غير هذا الرأي».

فقال علي بن أبي طالب:

«نعم عندي من الرأي، إن القوم قد سألوك المنزلة – وهم في الوضع –

(١) البداية والنهاية – ابن كثير – جـ ٤ – ص ٧٥.

التي لهم فيها الذل والصَّغَار، ونزولهم على حكمك عزٌّ لك، وفتحٌ للمسلمين، لك في ذلك الأجر العظيم في كل ظمأ ومخمصة، وفي قطع كل وادٍ وبقعة حتى تقدم إلى أصحابك وجندك، فإذا قدمت عليهم كان الأمر والعافية والصلح والفتح إن شاء الله».

ثم إن عليًا وضح أمراً آخر فقال:

«وأخرى فإني لست آمن الروم إن هم أيسوا من قبولك الصلح وقدومك عليهم أن يتمسكوا بحصنهم، ويلتئم إليهم إخوانهم من أهل دينهم فتشتد شوكتهم، ويدخل على المسلمين من ذلك البلاء ويطول أمرهم وحربهم، ويصيبهم الجهد والجوع، ولعل المسلمين أن يقتربوا من الحصن، فيرشقونهم بالنشاب، أو يقذفونهم بالحجارة، فإن أصيب بعض المسلمين تمنيت أن تكون قد افتديت قتل رجل مسلم من المسلمين بكل مشرك؛ فهذا ما عندي، والسلام».

رأي عمر:

عليٌّ يذكِّر أمير المؤمنين بحرصه على حياة كل فرد من جيوش المسلمين، وأن في حفظ دم مسلم واحد الخير كله، فالمسلمون لا يدفعون عدوهم إلى حربهم، وهم حينما يعلمون برغبة في الصلح لا يتأخرون عنه، لأن

مهمتهم العظيمة هي إخراج الناس من الضلال إلى النور، أومساعدتهم على التخلص من الشرور التي بأنفسهم لا دفعهم إلى القتال.

وبعد ما استمع عمر إلى الرأيين جيداً قال:

«أما أنت يا أبا عمرو - يقصد عثمان بن عفان - فقد أحسنت النظر في مكيدة الأعداء، وأما أنت يا أبا الحسن - يقصد عليّ بن أبي طالب - فقد أحسنت النظر لأهل الإسلام، وأنا سائر إلى الشام إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله»(١).

إن عمر الحاكم المسلم قد تربي على يد الرسول ﷺ، وتعلم منه أصول الحكم، وعرف العدل على حقيقته عبر هديه العظيم، ومن قبلها كلام الله القرآن الكريم، ولذلك تعلم ما لم يتعلمه حاكم الدولة العظمى؟.

خروج عمر إلى الشام:

واستعد عمر للخروج، فجمع الناس وأخبرهم برغبته في الذهاب إلى الشام، وبأنه يريد أن يحفظ دماء المسلمين، كما أخبرهم بأنه جعل على المدينة علي بن أبي طالب.

(١) الفتوح - ابن أعثم - جـ ١ - ص ٣٩٢.

أما عن الجيش الذي جهزه معه ليساعد المسلمين في حصار الروم فكان على مقدمته العباس بن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ(١).

وعندما اقترب عمر من الشام خرج أبوعبيدة لاستقباله، هو والمسلمون وعمر الحاكم الذي فتح الله عليه، ونشرأصحابه في العالم يحاربون الجبابرة من الفرس و الروم، وهو الآن مقبل على فتح مدينة القدس وهي أعظم مدن الروم لما فيها من مقدسات، فماذا كان يرتدي حاكم المسلمين؟ لقد كان يرتدي جبة من صوف، وعباءة عادية، وعندما رآه أبو عبيدة أقبل عليه وعانقه، وأخذ عمر يسأل عن الصحابة العظام ، واحداً واحداً، سؤال الأخ عن أخيه، لا الحاكم عن المحكومين، فقد علمهم الإسلام أنهم جميعاً أمام الله متساوون، وما كون عمر حاكماً عليهم، إلا أمراً دنيوياً لصالح المسلمين، وهم بعد ذلك جميعاً يطلبون الأجر والثواب من الله.

لو قالها غيرك!:

ونظر أبوعبيدة إلى ثياب حاكم المسلمين فوجد أن الثياب التي يرتديها مع كونها بسيطة فإنها ليست على حالها، فقال أبوعبيدة له:

– «قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا»

(١) البداية والنهاية – ابن كثير – جـ ٤ – ص ٧٥.

إنَّ هذا الذي فعله حاكم المسلمين في نظر أهل الأرض، من الروم واليهود الذين تعودوا على عظم مظهر ملوك الروم أمامهم، وينتظرون أن يروا الحاكم الذي أذل الله هؤلاء الجبابرة له، وأحل حكمه بدلاً من ملكهم، يتوقعون أن يروا ملكاً جميل الثياب، عليه من الزينة، فيفاجؤون بعمر بن الخطاب وعليه مثل هذه الثياب.

فماذا كان رد عمر على كلمات أبي عبيدة هذه ؟ لقد ضربه في صدره، علامة على عدم رضاه عما يقول في حزم:

«أولو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام،فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله»(١).

(١) البداية والنهاية – ابن كثير – جـ ٤ – ص ٨١.

الفصل الخامس

فتح عظيم

لقاء عمر بقادة الجند:

لم ينتظر عمر حتى يستريح من تعب السفر، وإنما أسرع إلى حيث ينتظره قادة الجنود، فلما وصل إليهم، وجدهم في انتظاره، وعليهم من الثياب الغالية التي صُنِعَتْ من «الديباج»، وهو قماش جميل كان عظماء الروم يصنعون منه ثيابهم، وكان المسلمون قد حصلوا عليه كغنائم منهم فغضب عمر من مظهرهم ، وقال لهم بأنهم قد ارتاحوا منذ سنتين، أي: منذ غزو بلاد الروم، وبدأ فتح الله عليهم بها، ولم يهدأ حتى قالوا له، بأنها من زي أهل هذه البلاد، الذي اعتادوا على ارتدائه، ثم هم قد ارتدوا السلاح فوقه(١).

فعمر الحاكم لا يريد من قادته أن يكونوا معزولين عن عامة الناس، لا يريد لهم ارتداء الملابس الفاخرة، والناس لا تجد مثل هذه الملابس، وإنما هو يريد نشر العدل في الأرض كلها كي لا يحس حتى أعداء الإسلام بظلم المسلمين، فهو لا يرتاح إلا بعد أن يخبره القادة أن هذه الثياب منتشرة هنا،

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر – ابن خلدون – ص ١٠٦.

ثم إنهم مجهزون بسلاحهم لم يرتاحوا، ولم ينسوا مهمتهم الأساسية التي خرجوا من أجلها وهي الجهاد، ونشر العدل والأمان.

عمر يعبر باب بيت المقدس:

ووصل عمر إلى باب مدينة بيت المقدس، وكان المسلمون قد اتفقوا على مكان اسمه «الجابية»[1] كي يلتقي عنده مع أهل مدينة بيت المقدس لعقد الصلح، بينما كان عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة في مكانهما لم يتحركا فقابل رجل من اليهود عمر وقال له:

«لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا»[1].

أهل بيت المقدس يطلبون الصلح:

وبينما عمر والرجل اليهودي كذلك إذ رأيا خيلاً كثيرة مقبلة، فأسرع المسلمون إلى سلاحهم، فنظر عمر ثم قال: إنها قد جاءت طالبة الصلح على أن يسلموا مدينة بيت المقدس، وأعطى عمر لأهل كل بلد نسخة من عهده بالأمان له، وقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم وصُلْبَانِهم،

(١) تاريخ الطبري - جـ ٣ - ص ٦٠٧.

أنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تهدم ، لا يُنقص منها ولا من حيزها – أي: مكانها – ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم – أي: لا يجبرون على الخروج من دينهم –، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيليا أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم – أي: يصلوا إلى المكان الذي يريدون الوصول إليه . . . » .

وهذه هي عظمة الإسلام التي ظهرت في هذه الوثيقة التي ستظل شاهداً على عدل المسلمين ، وعظمة الإسلام حينما يسود في الأرض وينتشر، فإنهم لم ينتقموا من أهل بيت المقدس الذين طلبوا أمير المؤمنين بنفسه، بل جاء إليهم عمر متواضعًا، وكتب إليهم ما أرادوا، وجاء في أول عهده أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكنائسهم، فلا يتعرض لها أحد من المسلمين، ولا تنقص.

أيُّ دين هذا الذي يسمح لأتباع ملة أو دين غيره أن يمارسوا عبادتهم كما يريدون؟ بل يعلن أنه سوف يحفظ لهم أماكن عبادتهم، بل سوف لا يجبرون على ترك دينهم، وهم أحرار فيما يريدون، وسوف يُحمَون من اليهود واللصوص، والظلمة من الروم، الذين ينبغي عليهم أن يخرجوا من

البلدة، إنه الإسلام العظيم، الذي أعاد الخير والجمال والصفاء إلى الأرض وقت أن ساد.

مكانة بيت المقدس عند المسلمين:

وإذا كان بيت المقدس مكاناً مقدساً عند اليهود والنصارى فإنه ذو مكانة عظيمة عند المسلمين؛ لأن فيه المسجد الأقصى ذلك الذي أسرى الله - عز وجل - فيه برسوله العظيم ساعة أن ضيَّق عليه مشركو مكة، واضطهدوه، كي يُخفف الله عنه، وفيه جُمِع له جميع الأنبياء والمرسلين، فصلى بهم الرسول ﷺ إماماً، وذكره الله في القرآن الكريم.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

وبذلك يكون الرسول ﷺ هو أول الفاتحين لهذا المكان المبارك في ليلة الإسراء من العام الثالث قبل الهجرة(١).

اجتماع المسلمين:

وكان من الذين شهدوا الصلح الذي كتبه عمر لأهل بيت المقدس، والرملة، عمر بن العاص وخالد بن الوليد، أبو عبيدة بن الجراح، وهكذا

(١) انظر عمرو بن العاص - عبد السلام العشري - ص ٥٧.

اجتمعت قلوب المسلمين والقادة على حاكمهم عمر بن الخطاب الذي حرص على السفر إليهم بنفسه؛ منعاً لحرب كبرى تتجدد بينهم وبين الروم، سوف يعمل اليهود فيها على تقوية موقف الروم.

وبعهد الأمان الذي وقع عليه أمير المؤمنين فرح أهل مدن فلسطين، وعمت البشرى جميع وجوه المسلمين بنصر الله، وبفتحه المبين الذي اضطر أهل أعظم مدن الروم إلى التسليم دون قتال.

أما الأرطبون الذي كان يُعرف بالذكاء وبالشجاعة فقد هرب، لقد كان الناس يعرفونه، ذكياً شجاعاً، ولكن هذا قبل أن يقابل المسلمين، أما وقد قابلهم وتحدث مع عمرو عُلِم أنه لا يستحق هذه الألقاب.

وهكذا أخذ عمرو بن العاص صاحب نصر أجنادين يتطلع إلى مكان جديد ينشر فيه دين الله تعالى، وهو قد احتفظ في نفسه بحديث يريد أن يخبر به أمير المؤمنين عمر، سنعرفه في فتح مصر[1].

(١) ديوان العبر والمبتدأ والخبر – ابن خلدون ص ١٠٦.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	
أرطبون الروم	٥
الفصل الثاني	
أرطبون العرب	١٣
الفصل الثالث	
المعركة	١٧
الفصل الرابع	
رأي أمير المؤمنين	٢٥
الفصل الخامس	
فتح عظيم	٣٥